الفصل الأوّل

عصر أمين الريحاني

١ ــ الحالة السياسية [١]

أمّا وقد تكلمنا عن الأمين وقدمناه إلى القراء فبات علينا أن نعرض إلى عصره .

بعد حوادث السنة الـ ١٨٦٠ المشئومة التي وقعت في لبنان بمؤازرة بعض الدول الأجنبيّة ومواطأة الدولة العثمانية صاحبة السلطان على البلاد يومذاك، عقد مؤتمر في بيروت مؤلّف من سفراء فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا والنمسا ، وفؤاد باشا وزير السلطان العثماني عبد المجيد ، وبعد مناقشات ومحاورات وضعوا للبنان نظاماً جديداً أسموه القانون الأساسيّ ، وأقروا جعل لبنان لواءً مستقلاً تابعاً الآستانة « القسطنطينية » رأساً ، يتولى رئاسته متصرّف مسيحي غريباً عن لبنان ينصّبه السلطان العثماني بعد موافقة الدول الخمس على تعيينه ، وكان ذلك في شهر حزيران « يونية » السنة ١٨٦١ .

وبمقتضى هذا النظام قسم لبنان إلى سبعة أقضية مؤلّفة من إحدى وأربعين ناحية ، فيها تسعمائة وخمس وسبعون قرية . أما الأقضية فهي : الشوف والمتن وكسروان والبترون والكورة وجزّين وزحلة .

وقد سلخوا عن هذه المتصرفية المستقلة استقلالا داخلياً وادي التيم والبقاع ومقاطعة صيدا وأخيراً بيروت وصور ، وتولّى إدارة المتصرفيّة بين السنوات ١٨٦١ــ ١٩١٨ ، المتصرّفون الآتية أسماؤهم .

---

(١) بالاعتماد على الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد وكتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس وكتاب أعمدة الحكمة السبع للكولونل لورانس وكتاب حياة البطريرك إلياس بطرس الحويك للخوري إبراهيم حرفوش وتاريخ لبنان المطول للدكتور يوسف مزهر .

داود باشا الأرمنى : ١٨٦١ — ١٨٦٨ .
فرنكو باشا كوسى الحلبى : ١٨٦٨ — ١٨٧٣ .
رستم باشا الإيطالى الأصل : ١٨٧٣ — ١٨٨٣[١] .
واصة باشا الألبانى : ١٨٨٣ — ١٨٩٢ .
نعوم باشا الحلبى : ١٨٩٢ — ١٩٠٢ .
مظفّر باشا البواونى : ١٩٠٢ — ١٩٠٧ .
يوسف باشا فرنكو : ١٩٠٧ — ١٩١٢ .
أوهانس باشا الأرمنى : ١٩١٢ — ١٩١٥ .

وفى السنة الـ ١٩١٥ ألغت الدولة العثمانية صاحبة السيادة على البلدان العربيّة آنذاك الامتيازات الأجنبية وذلك فى الحرب الكونيّة الأولى ، التى بدأت فى السنة الـ ١٩١٤ غير ملتفتة إلى القانون الأساسىّ . وشرعت تعيّن متصرفين أتراكًا أرهم :

على منيف بك التركى : ١٩١٥ — ١٩١٦ .
إسماعيل حقّى بك التركى : ١٩١٦ — ١٩١٨ .

ممتاز بك التركى ١٩١٨ وفى مدّة تولّيه تقلّص ظلّ الدولة العثمانية عن لبنان وعن البلدان العربية جملة .

٢ — عهد الانتداب

بعد انقضاء الحرب الكونية الأولى السنة الـ ١٩١٨ وانتصار الحلفاء ، إنكلترا وفرنسا وأميركا ومن ثمّ إيطاليا[٢] على دول المحور ألمانيا والنمسا وتركيا .

وألّف الحلفاء عصبة الأمم وجعلوا مركزها مدينة « جنيف » فى سويسرا ، وعهدت هذه العصبة إلى فرنسا بالإشراف على الحكومات الوطنيّة فى لبنان وسوريا ، وإلى دولة بريطانيا الإشراف على العراق وفلسطين وشرقىّ الأردن .

---

(١) فى مدة تولى هذا المتصرف كانت ولادة أمين الريحانى .
(٢) إيطاليا كانت فى البدء مع دول المحور ثم انفصلت عنها واتحدت مع الحلفاء .

وفى السنة الـ ١٩١٩ انتدب اللبنانيون كافّة البطريرك الماروني إلياس بطرس الحويك ممثّلاً عن لبنان فى مؤتمر « لوزان » ليطالب باستقلال لبنان بحدوده الطبيعيّة ، وإعادة ما سُلخ عنه من أراضيه . وبموجب معاهدة « سيفروسان ريمو » أُقِرَّ انتداب فرنسا على لبنان وسوريا[١] لتسير بالبلدين إلى حياة الاستقلال . فعيّنت مندوبًا ساميًا من قبلها ، الجنرال « غورو » للإشراف على السلطات الوطنية ، يعاونه عدد من أصحاب الاختصاص . وكانت بيروت مركز المفوّض السامى وقاعدة لأعمال الجيوش . وفى أوّل أيلول « سبتمبر » من السنة الـ ١٩٢٠ أعلن الجنرال « غورو » باسم الجمهورية الفرنسيّة دولة لبنان الكبير ، وجعل بيروت عاصمة لها . وتعاقب على لبنان بعد إعلان استقلاله أربعة حكّام فرنسيين هم :

القومندان ترابو .
المسيو أوبوار .
الجنرال فاندنبرغ .
المسيو كايلاه .

وكانت مدّة تعاقبهم على الحكم من السنة الـ ١٩٢٠ — ١٩٢٦ ، وأمّا المفوضون السامون فهم :

جورج بيكو .
الجنرال غورو .
الجنرال ديفان .
الجنرال سرايل .
ده جوفنيل .
بونسو .
دى مارتيل .
غبريال بيو .
الجنرال دانز .
الجنرال كاترو .

---

(١) وأقر انتداب إنكلترا على العراق وفلسطين وشرق الأردن .

هيلّلو .

الجنرال بينيه[١] .

ولمّا تمّ وضع الدستور ، أعلن المسيو « دى جوفنيل » المفوّض السامى الجمهورية اللبنانيّة السنة الـ ١٩٢٦ وانتخب شارل دبّاس رئيساً للجمهورية لمدّة ثلاث سنوات وجدّدت له الرئاسة فى السنة الـ ١٩٢٩ .

وفى ٩ أيّار « مايو » من السنة الـ ١٩٣٢ أُوقف تنفيذ الدستور اللبنانى بقرار أصدره المفوّض السامى الفرنسى ، وكلّف شارل دبّاس إدارة مهام الحكومة مع منحه قوّة السلطتين التنفيذيّة والتشريعيّة بمساعدة الانتداب ومؤازرة مجلس مدراء المصالح العامّة .

وفى ٢ كانون الثانى « يناير » سنة ١٩٣٤ صدر مرسوم المفوّض السامى بتعيين حبيب باشا السعد رئيساً للجمهورية خلفاً لشارل دبّاس ، ثمّ جدّد تعيين حبيب باشا سنة ثانية إلى نهاية السنة ١٩٣٥ .

وفى ٢٠ كانون الثانى « يناير » سنة ١٩٣٦ انتخب « إميل إدّه » رئيساً للجمهورية لمدّة ثلاث سنوات . وفى ١٢ كانون الثانى « يناير » أعيد الدستور بقرار المفوّض السامى « دى مارتيل » وفى السنة الـ ١٩٣٧ أصدر أمراً بتجديد مدّة سلطة رئيس الجمهورية لستّ سنوات ، اعتباراً من تاريخ انتخابه وفى ٧ تشرين الأوّل « أكتوبر » أصدر المفوّض السامى قراراً بعدد أعضاء المجلس النيابى ، وجعله مؤلّفاً من ثلاثة وستين عضواً ، وبقى « إميل إدّه » فى الرئاسة إلى السنة ١٩٤١ وعيّن فى مكانه « ألفرد نقّاش » وفى عهد رئاسته احتُفل فى بيروت بإعلان استقلال لبنان على أساس جديد باسم دولتى بريطانيا وفرنسا الحرة[٢] وذلك فى ٢٦ تشرين الثانى « نوفمبر » السنة ١٩٤١ .

هذه هى أهم الأحداث السياسيّة التى كانت فى لبنان زمن حياة مترجمنا .

---

(١) دام الانتداب من السنة الـ ١٩٢٠ – ١٩٤٣ .

(٢) على أثر الحرب الكونية الثانية التى أثارها « رودلف هتلر » الألمانى التبعة السنة ١٩٣٩ ودخوله فرنسا انقسمت هذه الدولة قسمين . قسم برئاسة المارشال « بتان » ومركزها « فيشى » وقسم برئاسة الجنرال « ديجول » فرنسا الحرة ومركزها خارج فرنسا .

وعلينا الآن أن نلقي نظرة إجمالية على الحركة الاجتماعية التي رافقها مترجمنا في سني حياته .

٣ ـ الحركة الاجتماعية

على أثر يقظة العرب وفي جملتهم اللبنانيون الذين تنسّموا أريج الحريّة واستوعبوا الكثير من الأفكار التحرريّة وعرفوا أنّ الحياة الإقطاعية ، حياة ظلم وجور ، وليس لأحد أن يستعلي على الآخر ، وكلهم من طينة واحدة ، ومعمل واحد ، سواء في ذلك الكبير والصغير ، الوجيه والحقير ، الغنيّ والفقير ، الملوك والسوقة ، وما من طبقيّة في الحياة ، وقد وهبت القوّة الأزليّة كلّ شخص عملاً خصّته به ليتعاون مع أخيه بتؤدة واطمئنان على العيش بأمن وسلام ، هذا يعمل بعقله وذاك يعمل بيده ، والإنتاج واحد بين العقل واليد ، وكلّ منهما يتمّم الآخر ، ولا غنى للواحد عن الثاني ، والحياة بجماتها لا تقوم إلاّ بالتعاون ، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه .

ليس من العدل في شيء ، أن يعيش الإقطاعيّ منعمًا على حساب العامل الكادح والفلاّح المجدّ . هذا ما دعا مترجمنا إلى أن يسمعنا من إنتاج عقله وصرير قلمه : « ترانا نعمل في الأرض ثماني ساعات كلّ يوم ، وذاك المقيم في القصر يأكل ثمار عملنا كلّها . ترانا نتعب ونشقى ، ليعيش هو وأهله في نعيم دائم . إنّ الأرض أيها الإخوان لمن يحرثها ، فإذا شاركنا السيّد في العمل حق له أن يشاركنا في ثمرة العمل . وإلاّ فالأرض لنا نتقاسم ريعها فيما بيننا على السواء »[1] .

ولا ريب أن ما نثر من أفكار إصلاحيّة قد أثّرت في الكثيرين من النّاس فغيّرت مجرى الحياة ، ولا سيّما في لبنان من أديب إسحاق في « دروه » إلى الريحاني وجبران خليل جبران وغيرهم ممّن حملوا المعول وقضوا على نسج العناكب التي حاكها الزمن وضفر حولها إطاراً قدسيًّا ، فقيّد العقل وأوثق الأيدي ، وأحكم

---

(١) « التطرف والإصلاح » من مقال عنوانه السلم ، ص ١٥ – ١٦ بيروت ١٩٥٠ .

النير فوق الرقاب ، فلا تتحرّك يمنة ولا يسرة . وكان عليها ألاّ تنظر إلاّ نقطة واحدة أماميّة معيّنة ، رسمها أرباب الحلّ والربط ، والويل ثمّ الويل لِمَن حوّل نظره عنها . وما ذلك إلاّ إلى ما أشار إليه مترجمنا قال : « فى الشرق المدارس ومعاهد العلم تُعدّ بالمئات . وكذلك الصحف والمجلاّت . وفيه المطابع تطبع الكتب الحديثة ، الأدبيّة والتاريخية والعلميّة . وفيه أندية الأدب والألعاب الرياضية ، والسيّارات ودور الصور المتحركة ، والقاعات للرقص والمحاضرات . وفيه الشركات الماليّة للقيام بالمشاريع الوطنيّة . وفيه أيدٍ تغزل وتنسج ، وأيدٍ تصنع القنابل والبارود .

إنّ النور والنار ليتباريان فى الشرق اليوم . ولكن فى تلك النار كثيراً من الحطب الأخضر . وفى ذاك النور كثيراً من الدخان .

الحطب الأخضر — وما أدراك ما هو! هو النقص فى خير الزعماء وإخلاصهم. هو الهوى الطائش والتعصب الأعمى فى الجموع المتألّبة . هو تزلّف الرؤساء الدينيين إلى أولى الأمر الأعلى وتضحيتهم بمصالح الأمة فى سبيل مصالحهم الخاصّة .

الحطب الأخضر الذى يحجب دخانه النور إنما هو الجهل والخوف ، والحاجة والرياء والجبن والنفاق ، والأثرة والادّعاء .

هى حال الشرق اليوم . نارٌ تتأجّج ونور يكاد يخنقه الدخان . هى حال الشرق الأقصى والأدنى من الصين إلى فلسطين .

وكيف تُصلح هذه الحال ؟ كيف تتخلّص من الحطب الأخضر فيصفو النور وتبدو سبل الهداية قويمة جليّة للناس ؟ وبكلمة أخرى، كيف تُصلح الأمّة ؟ .

قد أشرت فيما تقدّم إلى تدرّج الإنسان فى سلاحه[1] دفاعاً وهجوماً من النبوت إلى الحيلة إلى الفكر . وهو لا يزال فى سبيل الإصلاح يلجأ إلى النبوت إلى القوّة ، على أن هناك طريقة أخرى غير الثورة مثلاً ، هى طريقة التطوّر

(١) أشار إلى ذلك فى بدء خطابه كتاب التطرف والإصلاح ص ٢٦ .

الطبيعى ، بل طريقة الفكر ، وكل ما يتناوله من أساليب التعليم والتربية .

أى الطريقتين أفضل ؟ قد تعلمون أنى فيما أكتب وأقول حامل على القديم البالى ، والقديم الفاسد ، من العقائد والتقاليد . إنى أطلب انقلاباً عامًّا فى الحياة الشرقية ، ولست فيما أطلب سياسيًّا . إنما طريقتى أدبيَّة ، تهذيبيَّة روحية »[١].

ولكى نتبين بجلاء الحركة الاجتماعية التى انتفضت منذ السنة ١٩٠٨ وهى السنة التى أعاد بها السلطان العثمانى عبد الحميد الدستور ، فأقبل الناس على ارتشاف العلم ، وانصرفت المطابع إلى طبع الكتب الأدبيَّة والعلميَّة والدينيَّة ، ولا سيَّما المطبعة الأميركية التى طبعت كتبًا علميَّة شتَّى فى الطبيعيَّات والرياضيات والهيئة والكيمياء والطبّ ، وقد توقفوا عنها لمَّا عدلوا إلى تعليمها باللغة الإنكليزية[٢]

هذا عدا ما نشرته المطبعة الكاثوليكية من الكتب الأدبيَّة والعلمية قديمة وحديثة وغيرهما من المطابع وتأسيس الأندية الأدبيَّة والجمعيات ، كلّ هذا كان سبيلاً إلى تغيير مجرى الفكر والحياة الاجتماعية ، وإنهاض الهمم إلى السعى وراء استنشاق الحريَّة ، وبذلك يقول مترجمنا : « متى تحولين وجهك نحو الشرق أيَّتها الحريَّة ؟ متى يمتزج نورك بنور هذا البلد الباهر ، فيدور معه حول الأرض ويضىء ظلمات كلّ شعب مظلوم ؟ أيتأتَّى أن يرى المستقبل تمثالاً للحريَّة بجانب الأهرام ؟ أيمكن أن نرى لك فى بحر الروم مثيلا ؟ أيمكن أن يولد لك أخوات فى الدردنيل وفى بحر الهند ، وفى خليج الصين أيتها الحريَّة ؟ متى تدورين مع البدور حول الأرض لتنيرى ظلمات الشعوب المقيَّدة والأمم المستعبدة » .

ويختم مقاله هذا بقوله :

« لبنان ، باريس ، نيويورك — فى الأوّل روحى وفى الثانية قلبى وفى الثالثة الآن جسدى »[٣] .

وكأنى بالريحانى يتنبأ عن يقظة الشعوب المستعبدة ، وها هى قد تحرَّرت

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٢ — ٣٣ .

(٢) « بيروت تاريخها وآثارها » للأب لويس شيخو بيروت ص ١١٥ .

(٣) « الريحانيات ج ١ الطبعة الثالثة » بيروت ص ٧٣ و ٧٥ .

ونظرت إلى عين الشمس الساطعة تستنشق هواء بلادها غير ممزوج بأنفاس المستعمر ، وقد تفلّتت من جور العثمانيين وسيطرة الانتداب الفرنسى والإنكليزى .

إنّ الحركة الاجتماعيّة ، وإن شئت فقل الحركة التحرريّة فى بلاد الشرق ، لم يقم فيها سيف مرهف ولا مِدفع مدوّ إلاّ فى الندرة وإنّما قام فيها يراع سيّال وفكر واع وقلب عامر بالمحبّة والإخلاص ويدٌ تملّصت من أغلالها ، وراحت تفك العقد عقدةً عقدة ، بفضل مَن عبّد الطريق أمامها من حملة القلم الأفذاذ كمترجمنا وأضرابه ، ولمّا يزل الفكر يعمل على تحطيم القيود الثقيلة التى زردتها الأزمنة السحيقة ، وتمشّت مع الأجيال ، فحاكت حولها نسيجًا من القداسة والرهبة ، فهبّت أقلام المفكرين الأعلام رفى جملتهم الريحانى وهو القائل : « إذا استطاعت النّاسيح أن توقف سير النهر ، وأن تسدّ فوهة البركان ، عندها يستطيع الزعماء القضاء على روح الثورة .

إذا كنت فقيراً ، ولم يكن لك رغبة فى نوافل العيش وكشاكشه كالعربات والطنافس والرياش ، فأنت إذن الغنىّ .

إنّ الذين يتجرون بحريتهم كما لو كانت ثوبًا من الخام ، إنْ هم إلاّ قبور متحركة .

إنّ جنونًا فى سبيل الحريّة لخير من العبوديّة . وإنّ عزًّا فى الممات لخير من حياة شاكية باكية تتوسّد اليأس وتلتحف الخنوع ».[1]

ولا ريب أن الحياة الاجتماعية قد تبدّلت بجملتها منذ افترار ثغر القرن العشرين فى الشرق كلّه ، ولا سيّما فى لبنان ، وذلك للتّمازج الذى حدث بين الشرق والغرب ، وواضح بيّن أنّ تبادل الأفكار وتبدّل المناخ ، مدعاة إلى انشقاع ظلمة النفوس وافترار ثغورها عن بسمات تشوّق للمستقبل الزاهر بأنوار الحريّة .

وبعد ذلك يتقاضانا البحث أن ننتقل إلى النظر فى الحركة الثقافية .

---

(١) « بزور للزارعين » بيروت ص ٢٥ .

٤ ـ الحركة الثقافية

إنّ إهمال الدولة العثمانية للأمور الأدبية والعلميّة آنذاك كتشييد دور العلم ونشر المعارف والعلوم بين طبقات الشعب أفسح المجال واسعًا للرسالات الأجنبية أن تتوارد على البلاد السوريّة والفلسطينية ولا سيّما لبنان فى أواسط القرن التاسع عشر . فأفادت البلاد وأضرّت معًا ، أفادت بأن بعثت مشعل العلم ساطعًا بين طبقات الأمة ، فنشرت المدارس والمطابع والملاجئ والمستشفيات على اختلاف أنواعها ومشاربها ، فأقبل عليها اللبنانيون ، إقبال النحلة على الزهرة المعطار ، يشتارون أطايب العلم ويجنون ثمار المعرفة ، يأخذون عنها العلوم والآداب ، فعزّت بهم البلاد وأفاقت اللغة العربية من سباتها الطويل ، وفاخرت بنبوغهم وجهادهم الأدبى وإلى ذلك أشار الريحانى بقوله : « هؤلاء الأحرار الكرام وفيهم من الشبّان العالم والمصلح والحكيم ، وفيهم أيضًا من يحتاجون إلى كثير من العلم والإصلاح والحكمة ، يعبدون الحريّة فوق كلّ شىء وينادون بكلّ لبنان من أجلها . فإن كان فيهم من يستحقّ أن يكون زعيم الشعب ، ألا تظنه يلبس الأرجوان ويغطى أذنيه بقلنسوة من حرير إذا تبوأ غداً كرسىّ الزعامة ؟ ألا تظنه ، وإن كان رجل الشعب اسمًا ، يكون فعلاً رجل البنائين ؟ هل أنت من رأينا ؟ أفلا تثنى بهؤلاء الشبّان المصلحين ؟ » إلى أن يقول فى ختام خطابه : « إنى أؤكد أنّ السماوات والأرض لا تضنّ علينا ببطلٍ لبنانىّ فى المستقبل ، ولكن متى يظهر وأين .. ؟ إن نبوءتى لا تتجاوز هذا الحدّ ، والسلام عليكِ يا ابنة لبنان .

تباركت ثمرة بطنك أيتها الأخت الفلاّحة ، تباركت فى أحشائك جرثومة الأبطال . وتبارك من يراها ويعرفها ويمجدها متى ظهرت لتقود وتهدى الناس»[1]. وبفضل المدارس تجاوبت أصداء العلم فى أنحاء الأقطار العربية ، وكان لبنان فى مقدّمة البلاد كلّها ثقافة .

وأضرّت الإرساليات الأجنبية بزرعها بزور التعصّب والشقاق حتى فى

---

(١) « الفوميات » ج ١ بيروت ص ٥ و ١١ من خطابه رجل الشعب .

البيت الواحد[١] ، إلاّ أنّ دم الحبّ والتساهل الذى جرى فى عروق المفكرين من أبنائه ، وهم نخبة طيبة صالحة راحوا يقاومون العقبات القائمة فى وجه التعصب فيهدمونها بمعاولهم الحادّة ، طلبًا للرقّ والحريّة، فانتشروا فى الأصقاع البعيدة فى مصر وفى الأميركيتين الشمالية والجنوبيّة وأوربا يحملون فى ضمائرهم بزوراً نقيّة ما نجمت ونمت وتفتّحت بتلاتها إلاّ فى بلاد الحريّة والطمأنينة ومن هنالك ، كانوا يبعثون الصيحة تلو الصيحة ممزوجة بحرقة قلب متألم لا ينبض إلاّ على التغلّب على التقاليد البالية والأساطير المخدّرة وبذلك قال : « أشهد أن لا نور ولا دخان فى سوريا اليوم غير ما كان مصدره بيروت . وأشهد أن بيروت وجه سوريا والهتتونى فى هذا الزمان يغسل وجهه . بيروت قلب سوريا والعلم يقضى بأن يكون نقيًا ، ولكن المدينة التى تدعى درّة فى تاج آل عثمان هى درّة فى أوحال وغبار . أوحال وغبار فى أسواق المدينة . وفى آدابها وفى سياستها وفى أديانها . وما ذا يزيل الأوحال والغبار . لا الصحافة ولا قرض البلدية ، ولا قصائد الشعراء ولا كلماتى تزيلها . هذه الأقذار من فضول الأعصر والأجيال لا يزيلها غير التربية الحقّة والتهذيب الصحيح ، تربية أساسها الشجاعة والصدق والنظافة وتهذيب أساسه حبّ العدل والوطن . متى تأصّلت هذه الفضائل فى الرعاة وفى الرعيّة تصطلح جادات المدينة وتستقيم جادات الأدب والدين والسياسة. أصلحوا الحياة تصلحوا الحكومة ، أصلحوا الحياة تصلحوا المدينة»[٢] .

هذا صوت الريحانى دوّى يوم كانت بيروت ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية ، وسيف الظلم والاستبداد مسلول فوق الرقاب . بمثل هذه الأقوال ، كان ينادى الأدباء والشعراء والمفكرون ، وقد حملوا حملة شعواء على الجهل والتعصب المقيت وقد كان العصب الوحيد الذي يتشبّث به السلطان والولاة والزعماء وأصحاب السيادة ومحترفو السياسة ، حبًا بمطامعهم وأنانيتهم ، أمّا وقد سقنا إليك شيئًا من أدبه وأحوال عصره ، فبات علينا أن نعرف من هو هذا الرجل الذى قال : « قل كلمتك وامشِ » .

---

(١) راجع « الساق على الساق » لأحمد فارس الشدياق طبعة باريس .

(٢) « الريحانيات » الطبعة الثالثة من مقال عنوانه بيروت ص ١٤١ .